المقامات وغربة البطل

الدكتور : كمال عطاب
قسم اللغة العربية وآدابها
جامعة باجي مختار - عنابة

ملخص :

الإنسان كائن بشري واجتماعي يبحث عن العيش في مجتمع يحقق فيه توازنه ويتناسب مع عاداته وقيمه الدينية والثقافية .ولكن البطل المقامي افتقد هذا الإحساس وتحول إلى شعور بالغربة والاغتراب وسط أمته وإخوانه وهو اغتراب تعدد وتنوع فكان الاغتراب المكاني والعقدي واللغوي فانقطع بذلك عن المجتمع الكبير وهو مملكة الإسلام وقد أراد أن يكشف عن أحوال الدولة الإسلامية في القرن الرابع الهجري وما بعده .

الكلمات المفتاحية : الاغتراب ،المكان ، اللغة ، المعتقد ، البطل المقامي .

Abstract :

The human is a social being, he always tries to live in a society that melt with its traditions and values. The hero sessions (maqamat) is insane and abroad among his people. Alianation this or that feeling of being abroad has diversified into alienation in space culture and religious beliefs. He wanted to show that by the situation of the Islamic state in the fourth century and the centuries after.

Keywords : alienation, space, culture , religious , hero session .

Résumé:

L'être humain est un être social, il essaie toujours de vivre dans une société qui fondent avec ses traditions et ses valeurs. Les séances de héros (maqamat) est fou et à l'étranger parmi les siens. Alianation tel ou tel sentiment d'être étranger a diversifié dans l'aliénation dans la culture de l'espace et les croyances religieuses. Il voulait montrer que par la situation de l'Etat islamique dans le quatrième siècle et des siècles après.

Mots-clés: l'aliénation, l'espace, la culture, la session religieux, héros.

ظهرت المقامة – كجنس أدبي– في النص النثري العربي دون أن يكون لها رابط بالكتابات النثرية السابقة ، جاءت هاتكة الأعراف والتقاليد ،جامعة بين النثر والشعر، جاعلة مظاهر الشعرية الحبل الرابط بين النصين وناقلة المتلقي بين الأسلوب القصصي السردي وصور الوصف التي تتعمق الأشياء، فلا تكاد تترك الموصوف إلا وأشبعته وصفا حتى يخيّل إليك أنه حاضر أمامك، يقول أبو هلال العسكري " ينبغي أن تعرف أن أجود الوصف ما يستوعب أكثر معاني الموصوف حتى كأنه يصور الموصوف لك فتراه نصب عينيك "(1) .

ارتكزت المقامة في أسلوبها القصصي على شخصيتين محوريتين : الراوي والبطل ؛ لقد تعدى الراوي مجرد رواية الأحداث إلى المشاركة فيها بل حدث أن أدى دور البطولة المطلق في المقامة البغدادية متقمصا كل خصائص البطل و تصرفاته ، ولو لم يشر الراوي إلى نفسه لاعتقدنا أن البطولة تعود إلى أبي الفتح الإسكندري .سار على نهج البطل في تصرفاته معتمدا سرعة البديهة في الإيقاع بفقير معدم دون رحمة ولا شفقة وكأنه يريد لهذا الرابط أن يستمر وتكون عقيدة سائدة في عصره ؛ عقيدة التحايل والابتزاز والاستحواذ على ما في أيدي الناس بالتحايل حينا والاستغباء حينا آخر . لقد شاء لهذا الراوي أن يتبع البطل أينما حلّ ، فالتنقل والترحال ضروريان لمعرفة أحوال هذا البطل وتتبع مغامراته بل قد يكون هذا البطل مصدر علم وثقافة الراوي " فالبطل واع تمام الوعي بهذا التناقض الحاصل في أعماق الذات فيقول في نَفَس غنائي ملحمي ينشد ملحمة الحق والباطل في آن واحد :

أنَا فِي الحَقِّ سِنَامٌ أنَا في البَاطِلِ غارِب"(2)

انعكس انتقال البطل من مكان إلى آخر على التسميات التي أطلقت على المقامات ؛ فهناك البغدادية والشامية والمغربية والجرجانية ، فإلى أي مدى كانت هذه التسميات ترجمة لفلسفة هذا البطل في الاغتراب ؟

بطل المقامات والاغتراب :

لم يكن الاغتراب أمرا مستحدثا أو بدعة أوجدتها ظروف القرن الرابع الهجري ، فالتنقل والترحال سمة الإنسان منذ أن وجد على الأرض مبعثه حينا حاجات معيشية فرضت عليه البحث عن مناطق الأكل والرعي والرغبة في اكتشاف المجهول " إن الاغتراب ليس إحساسا أو شعورا حديث العهد ظهر مع ظهور الوجودية أو مع تعقد الحياة وتكاثر أزماتها بل هو قديم تمتد جذوره إلى أبعد بكثيرمن عصرنا "(3)، فبطل المقامات لم يكن بدعا بين الناس .

لقد ضرب الشاعر الجاهلي أروع المثل وأعطى لنا صورة صادقة عن الاغتراب ؛ فالوقوف على الأطلال صورة منه .إنه يقف على بقايا آثار كانت له فيها مغامرات وحكايات وتجارب ألهمته شعره ودفعت فيه روح القول الجميل ، ولكن هذه الذكريات أصبحت أثرا بعد عين وولدت فيه الإحساس بالوحدانية فبكى واستبكى فلم يجد من يواسيه إلا النفر القليل ، فنراه يخاطب الواحد والاثنين [قفا نبك] " كشف لنا الشاعر الجاهلي عن هذا الواقع المؤلم وعن إحساسه الشديد بفجيعة الغربة في مطالع قصائده التي كانت في الغالب حديثا عن الأطلال ووقوفا بالمنزل الداثر أو الرسم العافي ، ففي تلك المطالع ينبثق إحساس الشاعر بالدهر كقوة خارقة لايمكن مقاومتها ، تأخذ كل شئ ، أمام هذه القوة يحس الشاعر الجاهلي أنه عاجز ولا حيلة له " (4) .لم يعد الاغتراب رغبة في التنقل والترحال نتيجة ظروف ما وإنما تحول إلى فلسفة حملها الشعراء فسكنت قلوبهم وعُدَّت قطعة من أنفسهم لاقوة لهم على رفضها أو التخلص منها ، فلسفة عبر عنها المتنبي بقوله :

ما مُقامِي بأرضِ نخْلَةَ إلاَّ كمُقَامِ المسِيحِ بينَ اليهُودِ

لقد رفض مجتمع المتنبي ثورة هذا الشاعر ومن خلاله مظاهر التمرد والخروج على نواميس الجماعة ، إن هذه الثورة تبرز الصراع الدفين والإحساس بالمواجهة والرفض لمفاهيم الجماعة " إنه عندما يرفض مفاهيم هؤلاء الناس وقيمهم ودينهم فإنه يريد أن يؤكد على اغترابه ونزوعه إلى التحرر " (5). فالاغتراب سببه التنافر الموجود بين الواقع الفعلي للإنسان والطبيعة الجوهرية ولن يتمّ إبعاد هذا التنافر إلا بتنازل الفرد عن جزء من حريته .

إن تمرد المتنبي لا يرقى في الحقيقة إلى تمرد غيره من الشعراء ، فقد توقف عند حدود الكلمة رغم بعدها الفلسفي عكس الشعراء الصعاليك الذين عبروا عن ثورتهم وتمردهم واغترابهم بحملهم السلاح في وجه مجتمعهم قاطعين كل صلة به معلنين صراحة اعتزالَهم قبيلتَهم رافضين الانتماءَ وهو أقصى مرحلة يصل إليها الإنسان فيرفض وطنه وأهله ويعلنها صراحة انتماءه إلى الغير ، يقول الشنفرى :

أَقِيمُوا بنِي أمِّي صدورَ مطِيِّكم فإنِّي إلى أهلٍ سواكم لَأَمْيَلُ

ولِي دُونَكم أهْلُونَ سيِّدٌ عملّسُ وأرْقَطُ زهلول وعرْفَاءُ جيَألُ

هم الأهلُ لامستودعُ السرِّ ذائِعٌ لديهم ولا الجَانِي بما جَرَّ يُخْذَلُ

إن الرغبة في التحرر جعلت هذه الطائفة دائمة الثورة على المعتقدات السائدة باحثة عن معايير ومعتقدات أخرى تتلاءم مع تصورها للحياة ، لذا أمكننا أن نجزم أن " هجرة الشنفرى وهجرة أمثاله من الشعراء لأوطانهم هجرة اضطرارية ، دافعها الرغبة في الخلاص من الفقر والعوز والظلم الذي حل بهم في بلادهم ، وهي أشبه ما تكون بهجرة الهارب المضطر إلى الرحيل " (6) .إن شخصية الصعلوك تشبه ما

يسميه لوكاتش "البطل الإشكالي " الذي يعكس التفسخ الأخلاقي وتصدع البنيان الاجتماعي واهتراء القيم الأصيلة.

إن الإحساس بالاغتراب لم يكن وليد ظرف معين أو اقتصر على فترة زمنية بل هو صفة إنسانية لاتفارقه مهما تغيرت الأحوال ، فالإنسان هذا الكائن القلق باستمرار يبحث عما وراء الحياة التي يحياها والمعتقد الذي يسيّر حياته ، إنه صراع بين ظرف يعيشه وحلم يتمنى تحقيقه ، ولم يكن بطل المقامات بمعزل عن هذا الشعور وهو المعروف بكثرة ترحاله وصراعه النفسي مع مفاهيمه .إنّ المقامات وليدة البؤس الإنساني والتمايز الطبقي واضطراب الوضع السياسي وانتشار المكدين والمتشردين . ولذا صاروا غرباء عن مجتمعهم بسبب أفكارهم ، فغربتهم روحية ونفسية أقصتهم عن أهلهم وذويهم، فتعدد اغترابهم إلى مكاني وعقدي ولغوي .

البطل وغربة النسب :

لطالما اشتكى أبو الفتح الاسكندري من مسألة الانتساب ، وانعكس ذلك على التسمية ، فإن كان الجزء الأول يشير إلى القدرة فهو الفاتح لكل مستغلق المستسهل لكل صعب فإن الجزء الثاني يحمل في طياته الغموض والضياع وعدم الانتساب . فالإسكندري نسبة إلى الإسكندرية ؛ إن التاريخ يحدثنا عن وجود ثلاث عشرة مدينة تحمل هذا الاسم ، فأي إسكندرية يريد بل أي وطن ينتسب إليه ، يقول :

[أَنَا حالِي منَ الزَّمَا ن كحَالي مَعَ النَّسَبْ

نسبِي في يدِ الزمَا ن إذَا سامَه انْقلَبْ

أَنَا أُمْسِي من النَّبيــ طِ وأُضْحِي منَ العَرَبْ](7)

تغلبت على النص الشعري مظاهر الفردية ولكنها ليست فردية الأنانية (**أنا** ، حالـــــــــي ، نسبـــــــــــــي ،**أنا** ، أمســـــــــي، أضحـــــــــي)، وإنما هي إشارات وإيماءات إلى حاله " فالأنا والضمائر الأخرى هي في أصلها أدوات نحوية منظمة للخطاب إلا أنها ليست غريبة عن الصياغات الخاصة بالحقائق الاجتماعية والنفسية الموضوعة للتداول من خلال الإحالة على أفعال وسلوكات يقوم بها الفاعلون "(8)

يحمل الإسكندري بين جنباته نفسا ضائعة باحثة عن الاستقرار والانتساب ولكنها لاتجد لها مستقرا وموطنا ، إنه يتقلب في مواضع الانتماء عله يرسو على أرض تحتضنه . فهو مثل الصبي الذي لم يصل إلى مرحلة النضج والحكمة " يذكر لنا الجاحظ أن العجم قالت : من علامة الرشد أن تكون النفس إلى مولدها مشتاقة وإلى مسقط رأسها تواقة "(9) وقد غلّف هذه الغربة بالآهات التي أحاطت بهذه الأبيات ، فهناك تواتر حرف السين المتبوع بالصفير ثم المد الواقع في أغلبية الكلمات .إنه يعتقد أن الانتماء إلى مكان ما أمر مستحيل :

[إِسكنْدرِيَّةُ دَارِي لو قرَّ فيها قَرَارِي

لكنَّ بالشام ليلِي وبالعراق نهارِي](10)

فهو يكرر أن الإسكندرية موطنه ولكنها إسكندرية نكرة لاتحيطها الألفاظ ولا تعيِّنها الأبعاد ، إنها لفظة خالية من كل مدلول خلو صاحبها من الانتساب والانتماء " لقد أصبح يعيش في مكان غريب عن طبيعة بلاده وعن عاداته وتقاليده :

الجِسْمُ فِي بَلَدٍ والرُّوحُ فِي بَلَدٍ يَا وَحْشَةَ الرُّوحِ بَلْ يَا غُرْبَةَ الجَسَد"(11)

يعيش الإسكندري الغربة ويحسها ، فهو يقاسيها ويتجرع مرارتها صباح مساء ؛ فهو عربي صباحا ونبطي مساء ، إنه يكرر في كل مرة لفظة (إسكندرية) وكأني به يذكر المتلقي بأن الضياع قدره المحتوم والتيه مكتوب عليه ، لم يشأ أن يحدد أي إسكندرية إمعانا في الولوج في فكرة الضياع والغربة .فأكبر امتحان يعيشه الإنسان هو أن يكون بلا وطن وبلا عنوان ، وأخطر من ذلك أن يعي الرجل هذه الغربة وأن يكابدها عن وعي فتزداد المعاناة ويكبر الجرح [**اللَّهُم يامُبْدِئَ الأشياءِ ومُعِيدَهَا ... أسْأَلُكَ الصلاةَ على سيِّدِ المرسَلِين محمَّدٍ وآلِهِ الطَّاهِرِينَ وأَنْ تُعِينَنِي على الغُرْبَةِ أَثْنِي حبْلَهَا وعلى العُسْرَةِ أعْدُو ظِلَّهَا**](12).إنها غربة المسافر بعيدا عن وطنه وأحبابه وما تبعثه في المرء من إحساس بالوحشة والانقطاع . لقد تجاوز الإسكندري التوتر الذي تحدثه الغربة ، إنها أصبحت جزءا من حياته وتفكيره ولم يعد يطلب العودة بل يروم المساعدة ليمتزج بها ، فهو يناشد الله وكان بإمكانه أن يطلب الرجوع إلى دياره ولكن ذلك لم يكن .

إن غربة الإسكندري غربة رجل واعٍ كلَّ الوعي فقد تعددت غربته وتنوعت ،فأحيانا يطلبها وأحيانا يطلب النجاة منها .

[ربِّ كما أنَّكَ أنْقَذْتَنِي فنَجِّنِي إنِّي فيهم غَرِيبْ] (13)

غربة المعتقد :

يعيش البطل المقامي صراعا نفسيا حادا ، فهو ينتقل في مملكة الإسلام بين أرجائها المختلفة ولكنه لايحس بانتمائه إلى هذه المملكة في مستواها العقدي ، فاختلطت عنده المفاهيم وتصارعت " تأتي الشخصيات الرئيسية من الأفعال ما يخرج عن المنطق والعقل ، ويدخل باب العجب ، أليس تعدد أقنعة الشخصية الواحدة دليل غرابة وعنوان خروج عن تماسكها " (14) . لقد ضاع البطل المقامي بين أبناء

عصره ، فلم يعد يعرف إلى أي عقيدة ينتمي وهو يحس هذا الضياع مما يزيد من معاناته وآلامه . إنها قسوة وضياع يصعب علاجه .إن البحث عن الانتماء العقدي دليل على التشرد وهو أصعب حالات التشرد :

[أغـــْتَذِي في الدِّيرِ قِسِّيـــ سًا وفي المَسْجِدِ راهِبْ](15)

إنه يبحث عن دين يتبعه وملة يقاسم أهلَها معتقدَهم فيصدق عليه قوله تعالى "مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لا إِلَى هؤلاءِ ولاَ إِلَى هَـــــــــؤُلاَءِ "(16)، فيزداد بذلك تألما وانعزالا وغربة .إن غربة الدين والمعتقد قد تدفع بالإنسان إلى الانتحار ، إنه يبحث عن ذاته وسط أبناء مملكته فيحسدهم على إيمانهم بغض النظر عن التزامهم بمبادئ ما يؤمنون به ،وفي خضم ذلك قد تختلط عليه الأمور[**فقال من أيِّ بلدٍ أنتَ ؟ فقلت :من قُمْ .فقال : حيَّاكَ اللهُ من أرضِ النِّعْمَةِ والرَّفَاهَةِ وبلدِ السُّنَّةِ والجَمَاعَةِ**](17)، إن الضياع قد لفّه لفا بل قل إن الجهل قد سار به نحو الظلمات ؛ فعن أي سنة يتحدث وإلى أي جماعة يشير ، فقم هي أقدس مدينة عند الشيعة ، وهي منبت أئمتهم فكيف تكون بلد السنة ، لقد أصابه الهوس فلم يعد يعي ما يقول ولكن اللاوعي سرعان ما يكشف عن خبايا مغايرة إنه واع تمام الوعي لما يقول متخذا منه وسيلة لخداع متلقيه [**وتَبَادرْنَا إِلَى الدَّعْوَةِ وقُمْنَا وراءَ الإِمَامِ قِيَام البَرَرَةِ الكرَامِ بوقارٍ وسكينَةٍ وحركَاتٍ موْزُونَةٍ ، فلكلٍّ بِضاعةٍ وقتٌ ولكل صناعةٍ سَمْتٌ**] (18)، والحقيقة أن غربة بطل المقامات مخالفة تماما للصورة التي تكونت لدينا ، فغربته غربة المؤمنين الأتقياء الذين مدحهم الرسول (ص) "بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ غريبا فطوبى للغرباء " . إنه يتقلب مع الظروف متخذا لكل صناعة أدواتها ولكل حادث حديث .أليست هذه صورة المنافق الذي يظهر عكس ما يبطن ؟لقد اتخذ التقلب فلسفة في حياته يؤمن بها ويطبقها ويدعو الناس إلى اتباعها :

[ويْحَكَ هَذَا الزَّمَانُ زُورُ فلاَ يَغُرَّنَّكَ الغُرُورُ

لاتَلْتَـــــــــــــــزِمْ حالةً ولكِنْ دُرْ بِاللَّيَـــــــــــالِي كَمَا تَدُورُ](19)

وقد يستهزئ بالمعتقدات الدينية في أقصى صورها بل نقول إنه يعبث بالدين ، فيعطي صورة ماجنة عن شخص يعرض نفسه للموت [**ثم عادَ إلى السَّجْدَةِ الثَّانِيَةِ وأوْمَأَ إِلَيَّ ، فَأَخَذْنَا الوَادِي وتركْنَا القومَ ساجِدِينَ لاتَعْلَمُ مَا صَنَعَ الدَّهْرُ بهم**](20)، ألم يقل العلماء بأن أقرب ما يكون المرء من ربه هو أن يكون ساجدا ، ففي تلك اللحظة الفارقة الحاسمة يرتكب المعصية ، أليس هذا تحديا للقوى الغيبية ؟. إنها صورة لدرجة الانحلال الخلقي وانعدام الضمير.

أي تقهقر أكبر من هذا ؟وأي صراع نفسي أعمق مما نقرأه ؟ يعبث بالصلاة جاعلا وقت السجود أفضل وقت للاستهتار والخداع والكذب ويكون الأمر أخطر عندما نعلم أن هذا السلوك صادر عن الإمام الذي ترك المصلين وفرّ .إنها صورة قد تنطبق على أي إمام في مسالكه المتعددة والمتنوعة والمتدرجة ، فالإمام يؤم الناس في الصلاة وقد يؤمهم بأن يكون ولي أمرهم ، ويقول :[**فقال إن الرَّجُلَ إِذَا ماتَ بَرُدَ اُسْتُهُ وهذا الرَّجُلُ قد لَمَسْتُهُ فعَلِمْتُ أَنَّهُ حَيٌّ ، فجَعَلُوا أَيْدِيَهُم في اسْتِهِ فقالوا :الأمْر على مَاذَكَرَ**](21)، للميت حرمته وله علينا واجب وهو أن يغسل ويكفن وتقام عليه الصلاة ويدفن ولكن هذا الميت تحول إلى ألعوبة في يد أبي الفتح الإسكندري وصاحبه عيسى بن هشام.إن هذا الوضع يكشف عن سقوط خلقي لامثيل له وعن ضياع وغربة عن الأخلاق والمبادئ الإنسانية ، صار الميت وسيلة وطعما للحصول على المال وبأشنع طريقة .إن هذه التصرفات في الحقيقة ليت سجية في البطل فهو يتظاهر:

[ولمَّا تَعَامَى الدَّهْرُ وهو أبو الوَرَى عن الرُّشْدِ في أَنْحَائِهِ ومَقَاصِدِهِ

تعَامَيْتُ حتَّى قِيلَ إِنِّي أَخُو عَمًى ولَا غَرْوَ أنْ يَحْذُوَ الفتَى حذْوَ وَالِدِهِ](22)

غربة الأسلوب :

تبدو اللغة في مستواها البسيط وسيلة تواصل بين الأفراد ولذا نظر إليها ابن جني نظرة مباشرة "حد اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم " (23).وقد تتعدى هذا المستوى فتصبح وسيلة إبداع تحمل في طياتها مجازا واستعارة فتكشف عن خباياها فلا يستطيع المرء فهم الدوال إلا بإعادة قراءتها قراءة ثانية والبحث عن المعنى الثاوي خلف الرموز فتعجز المدلولات عن التعبير عن المراد ، فيلجأ المتلقي إلى مخزونه الفكري والبلاغي عله يدرك مبتغى صاحب النص ويملأ البياض الذي يتركه صاحب القول [**فنظَرْتُ إلى مجْنُونٍ تأخُذُنِي عيْنُهُ وتدَعْنِي ، فقال إنْ تَصْدُقِ الطيْرُ فأنتم غُرَبَاءُ**](24)، لقد تلعَّب باللغة وبالمتلقي ، جمع بين عنصرين غربة المتكلم وغربة اللغة ؛ إنه مجنون ينطق كلاما مبهما ولكن هذا الجنون ترجمة لجنه الشعري الإبداعي الذي ينطق وراء لسانه ، فكيف تنطق الطير لكي تكون صادقة وتسمح للمتلقي باستخلاص الأحكام . فقد حكم بالغربة على محاوريه غربة لغته التي لايفهمها إلا من عرف تقاليد العرب ومعتقداتهم ، إنهم كانوا يسلمون أمرهم للطير وعليه تكون تصرفاتهم (25).

إن غربة البطل في نواحيها المختلفة والمتنوعة انعكست على لغته وكأنه لم يعد قادرا على التواصل مع أبناء جلدته [**أَخْلَاقُ سَيِّدِنَا تُحَبُّ وبِعَقْوَتِهِ يُلَبُّ وقُرْبُهُ تُحَفُّ ونَأْيُهُ تَلَفٌ وخُلَّتُهُ نَسَبٌ وقَطِيعَتُهُ نَصَبٌ**](26)، يبدو القول قطعة مدحية لاتختلف عن القصائد المدحية التي نقرأها لأبي تمام والبحتري والمتنبي فيها ذكر لخصال الرجل وشجاعته وأخلاقه وجوده وكرمه، ولكنها تتجاوز هذا الحد لإبراز هذا التفوق من جهة وإحداث الفجوة بينه وبين متلقيه فلا يكادون يقرأونها حتى يتركوها ولكن صاحبها يستمتع بها من جهة ولكن سرعان ما تكشف عن نفس تتعذب لأنه لم

يجد القبول والفهم فيحس بغربة تقتل النفس،يقول: **[الكَرَمُ ثَبَّتَ اللهُ جَيْشَ سُعُودِكَ يَزِينُ واللُّؤْمُ عَضَّ الدَّهْرُ جَفْنَ حَسُودِكَ يَشِينُ والأَرْوَعُ يُثِيبُ والمُعْوِرُ يَخِيُب]**(27) ، إن اضطراب نفسية البطل والبحث عن الذات الضائعة التي لم تجد سندا انعكس على لغته وبناء تركيبه ، تسابقت الكلمات رغبة في إيجاد ما يجمعها ، فكلمة معجمة وأخرى خالية من الإعجام وهي صناعة يعجز البلغاء عن الإتيان بها ، إنه صراع على مستوى الشكل والمعنى ، اتفقت الألفاظ في الشكل وتضادت في المعنى:

الكرم ⟷ اللؤم

يزين ⟷ يشين

الأروع ⟷ المعور

يثيب ⟷ يخيب

يعيش بطل المقامات صراعا نفسيا حادا ،يرغب في التواصل مع الآخرين ولكن الكلمات تخونه وتنفِّر الآخرمنه وهو الذي لم يتعود على مثل هذا الأسلوب في الكتابة فيترك النص المقامي ومن خلاله صاحبه .وذلك ما يزيد في غربته ويبعث فيه الحزن ويزهده في الحياة .يقول :

[ياخَاطِبَ الدُّنْيَا الدَّنِيَّةَ إِنَّهَا شَرَكُ الرَّدَى وقَرَارَةُ الأَكْدَارِ

دَارٌ مَتَى مَا أَضْحَكَتْ فِي يَوْمِهَا أَبْكَتْ غدًا بُعْدًا لَهَـــــا مِنْ دَارِ](28)

إن الإبداع الشعري صنعة وعذاب ؛ يتعذب الشاعر في إخراجها إلى الوجود ، يتصارع مع ذاته ومع جنه ومع متلقيه ليلقي إليهم بقصيدة علها تجد القبول .ولكن

بطل الحريري تعدى ذلك فصنع قصيدتين في قصيدة واحدة تحديا لهذا المتلقي ولهذا الزمان .يجد المتلقي نفسه أمام صناعة شعرية من طراز جديد لم تألفها أسماعه وتتذوقها أحاسيسه .لقد حذف تفعيلتين من كل بيت ليعطينا نغما إيقاعيا جديدا :

يَاخَاطِبَ الدُّنْيَا الدَّنِيَّةِ إِنَّهَا شَرَكُ الرَّدَى

دَارٌ مَتَى مَا أَضْحَكَتْ فِي يَوْمِهَا أَبْكَتْ غَدا

لقد تعود القارئ على الزحافات والعلل في القصائد أو أن يجزِّئ البحر ولكن أن تحتوي القصيدة على قصيدتين فهذا أمر جديد بين وضعية المبدع " يمكن اعتبار منزلة المثقف أبي الفتح الإسكندري المتردية في عصره عنصرا هاما من عناصر أزمته ، وهي أزمة كل مثقف عربي عاش في القرن الرابع الهجري زمن ميلاد الإسكندري ومعاناته "(29).وهي طريقة في التحدي لم تكن معهودة أراد البطل أن يتحدى بني جلدته بأن يأتيهم بطريقة في الكتابة الشعرية غريبة غربته وكأنه يتمرد على المفاهيم السائدة طارحا مبادئه أمامهم .فغربته غربة لم تكن معروفة "إنما الغربة حين كان يطلب من الأمر مستحيله ، فيتعلق بفنون من القول غريبة في حد ذاتها كأن يأتي بكلام يُقرأ من أوله كما يُقرأ من آخره كما نجد ذلك في المقامة المغربية "(30).ساق في هذه المقامة مجموعة من الألغاز اللغوية التي يصعب فك شفرتها إذا لم ينبه على ذلك الحريري[**كَبِّرْرَجَاءَ أَمْرِ رَبِّكَ**] و[**سَكَتْ كُلَّ مَنْ نَمَّ لَكَ تَكَسْ**](31) ،تجاوز الحريري الأعراف اللغوية وقواعد الكتابة التي تعارفت عليها الأمة وأسس الفصاحة والقواعد البلاغية إلى طريقة لم يعد المعنى اللغوي هو المقصود وإنما على المتلقي أن يبحث عن المعنى المختفي وراء الحروف " إذ يتم تجاوز البناء اللغوي إلى خصوصية الاتصال الأدبي وتميزه "(32) . إن كل عبارة تُقرأ طردا وعكسا أي من أولها إلى آخرها أو العكس . تجاوز التعقيد اللغوي حده

المعروف ليترجم حالة هذا البطل من جهة وظروف المجتمع والدولة الإسلامية ككل والجنس العربي خاصة " إن الإكثار من المحسنات البديعية يعبر عن روح التكلف والسخرية اللاذعة تعبيرا عن الألم الذي ساد طبقات المجتمع " (33).

وخلاصة القول إن بطل المقامات لايعبر عن ذاته ولا عن أحاسيسه وإنما هو يترجم أحاسيس الأمة وأوضاعها ، فهي لاتعيش غربة بل غربا متعددة ؛ فهو العربي الذي يفتخر بنسبه المضري وبعروبته ولكن الظروف تغيرت ، فقد أُبعد العربي عن دواليب الدولة فتحكم فيها غير العربي وتقطعت أوصال الدولة الإسلامية فلم نعد نتحدث إلا عن أقاليم سجلتها عناوين المقامات فهذه شامية وتلك عراقية وأخرى موصلية ولم نسمع عن عباسية أو أموية .إن اغترابه هو اغتراب أمة بكاملها فلم يعد يجد من يتخاطب معه أو مدينة محددة تأويه وهو ما زاد في إحساسه بالغربة .

الهوامش :

1- الصناعتين ، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية ، بيروت 1986 ، ص 134 .

2- المنصف شعرانة ، أزمة الذات في مقامات الهمذاني ، دار المعارف للطباعة والنشر ، سوسة ، تونس ، 1996، ص 61 .

3- أحلام الزعيم ، أبو نواس بين العبث والاغتراب والتمرد ، دار العودة بيروت ، ط 1 ، 1981 ، ص 67 .

4 – سميرة سلامي، الاغتراب في الشعر العباسي ، دار الينابيع ، مصر، ط1 ، 2000 ، ص 69 .

5 – أبو نواس بين العبث والاغتراب والتمرد ، ص 69 .

6 – سميرة سلامي ، الاغتراب في الشعر العباسي ، ص124 .

7 – محمد محي الدين عبد الحميد ،شرح مقاملت الهمذاني ،دار الكتب العلمية ، بيروت ،(د.ت) المقامة القزوينية، ص 105 .

8 – سعيد بنكراد ، الأنا بين الممنوع وسلطة الزمن : قراءة في رواية [سمر كلمات] لطالب الرفاعي ، مجلة علامات ، المغرب ، العدد26 ، 2006 ، ص 33 .

9- محمد عبيد صالح السبهاني ،المكان في الشعر الأندلسي ،دار الآفاق العربية ، القاهرة ، 1، 2007 ، ص 138 .

10- شرح مقامات الهمذاني ،العلمية ، ص 315 .
11 - المكان في الشعر الأندلسي، 138 .
12- شرح مقامات الهمذاني ، الأذربيجانية ، ص54 .
13- المرجع نفسه ، القزوينية ، ص 102 .
14- المنصف شعرانة ، أزمة الذات في مقامات الهمذاني ، ص 7 .
15- شرح مقامات الهمذاني ، المارستانية ، ص161 .
16 - النساء ، الآية: 143 .
17 - شرح مقامات الهمذاني ، الحلوانية ، ص 237 .
18 - المرجع نفسه، الخمرية ، ص419 ــ 420 .
19 - المرجع نفسه ، القريضية ، ص17 .
20 - المرجع نفسه ، الموصلية ، ص119 .
21- المرجع نفسه ، الموصلية ، ص115 .
22 - الشريشي،شرح مقامات الحريري،صححه محمد عبد المنعم خفاجي المكتبة الثقافية ،بيروت،المقامة البرقعيدية،ج1 ص144 .
23- ابن جني ، سر صناعة الإعراب ،تحقيق محمد علي النجار،دار الكتاب العربي ،بيروت ،ج1 ص33 .
24- شرج مقامات الهمذاني ، المارستانية ، ص 152 .
25- كان من عوائد العرب أن يعرفوا حوادثهم وما جريات أحداثهم بأن يزجروا طيرا ؛ فإن مر بهم يمينا تفاءلوا وإن مر شمالا تشاءموا ، وبعضهم على عكس ذلك يتشاءمون بما يمر بأيمانهم ويتفاءلون بما يمر بشمائلهم . شرح مقامات الهمذاني ، محمد محي الدين عبد الحميد ، ص152 .
26- ،شرح مقامات الحريري ، الرقطاء ،ج2ص49 \50 .
27- شرح مقامات الحريري ، المراغية : ج1 ص 123 .
28 - شرح مقامات الحريري ،الشعرية :ج 1 ص211 و216 .
29 - المنصف شعرانة، أزمة الذات في مقامات الهمذاني ، ص 46 .
30- عبد الملك مرتاض،فن المقامات في الأدب العربي ،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، 1980 ،ص 367/366
31- شرح مقامات الحريري ، المغربية ،ج2 ص 81 .
32 - جمال حضري ، المقاييس الأسلوبية في الدراسات القرآنية ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط 1 ، 2010 ، ص 209 .
33 - نادر كاظم ، المقامات والتلقي ، وزارة الإعلام والثقافة والتراث الوطني ، الراق ، ط1 ، 2003 ، ص 237

المصادر والمراجع :

- **القرآن الكريم .**

المراجع :

1 – أحلام الزعيم ، أبو نواس بين العبث والاغتراب والتمرد ، دار العودة بيروت ، ط 1 ، 1981.

2 – جمال حضري ، المقاييس الأسلوبية في الدراسات القرآنية ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط 1 ، 2010 .

3 – ابن جني ، سر صناعة الإعراب ،تحقيق محمد علي النجار،دار الكتاب العربي ، بيروت .

4 – سعيد بنكراد ، الأنا بين الممنوع وسلطة الزمن : قراءة في رواية [سمر كلمات] لطالب الرفاعي ، مجلة علامات ، المغرب ، العدد26 ، 2006 .

5 – سميرة سلامي، الاغتراب في الشعر العباسي ، دار الينابيع ، مصر، ط1 ، 2000 .

6 – الشريشي، (أبو العباس أحمد بن عبد المؤمن القيسي)شرح مقامات الحريري،صححه محمد عبد المنعم خفاجي المكتبة الثقافية ،بيروت.

7 – عبد الملك مرتاض ، فن المقامات في الأدب العربي ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ،الجزائر ، 1980.

8 – العسكري (أبو هلال الحسن بن عبد الله) الصناعتين ، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية ، بيروت 1986.

9 – محمد عبيد صالح السبهاني،المكان في الشعرالأندلسي ، دار الآفاق العربية ، القاهرة ، ط1 ، 2007.

10 – محمد محي الدين عبد الحميد ،شرح مقاملت الهمذاني ،دار الكتب العلمية ، بيروت ،(د.ت).

11 – المنصف شعرانة، أزمة الذات في مقامات الهمذاني، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة ، تونس ، 1996.

12 – نادر كاظم ، المقامات والتلقي ، وزارة الإعلام والثقافة والتراث الوطني ، الراق ، ط1 ، 2003.